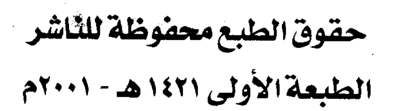

أختاه
التوبة قبل الندم
جمع وترتيب
محمود المصري
(أبو عمار)
الناشر
مؤسسة قرطبة
ت : ٥٨١٥٠٢٧
ضياء سعيدة



الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م

رقم الإيداع	٩٩/١٠١٨٧

الناشر

مؤسسة قرطبة

٦٤ شارع الخليفة - مدينة الأندلس - الهرم ت: ٧٧٩٥٠٢٧
٥ شارع الباب الأخضر - ميدان الحسين ت: ٠١٠١٢٣٣٧٨٧٤

الشركة الفنية للطباعة ت: 7771039 - 012/7739241

الإخراج الفنى: إبراهيم حسن
ت: ٥٤٦٧٨٠٢

• مقدمة •

الحمد لله الذى جبر قلوب التائبين بالقبول وألبسهم خُلَع العبودية التى هى منتهى الغايات وأصل الأصول.. ذلّوا لديه بشهود ذنوبهم وأحبوه لإحسانه إليهم بعفوه عن زلتهم.

الحمد لله الذى بتحميده يُستفتح كل كتاب، وبذكره يصدّر كل خطاب، وبحمده يتنعم أهل النعيم فى دار الثواب، وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب، وضرب بينهم وبين السعداء بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونتوب إليه توبة من يوقن أنه رب الأرباب ومسبب الأسباب، ونرجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب، ونمزج الخوف برجائنا مزج من لا يرتاب، أنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب... شديد العقاب. ونصلى على نبيه محمد ﷺ وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول المطلع يوم العرض والحساب. وتمهد لنا عند الله زُلفى وحُسن مآب.

أما بعد؛ فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب، مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين[1].

---

(١) الإحياء للإمام الغزالى: (٤/ ٣) ط. مكتبة الإيمان.

وإن الله عز وجل الذى رحمته وسعت كل شيء لم يدع لنا مجالاً لليأس أو القنوط، فهو يعلم تقصير عباده ويعلم أنهم يقعون فى الذنوب ويحتاجون فى كل لحظة إلى رحمة علام الغيوب، ولذلك فتح الله لعباده باباً عظيماً لمن أراد أن يتوب.

قال ﷺ: «إن للتوبة باباً عرض ما بين مصراعيه ما بين المشرق والمغرب لا يُغلق حتى تطلع الشمس من مغربها»(١).

ولقد وضح النبى ﷺ أن الكل يخطئ، ولكن لا يتوب إلا الخيار الأبرار.. قال ﷺ: «كل بنى آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون»(٢).

وها هى رسالتى أقدمها لك أيتها الأخت الفاضلة لتصبحى زهرة تتألق روعة وجمالاً فى بستان التائبات إلى الله ــ جل وعلا ــ قبل الندم على كل ما فات من الذنوب والهفوات، حيث لا ينفع الندم ولا الحسرة ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر: ٥٦).

المشفق عليك

محمود المصرى (أبو عمار)

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير عن صفوان بن عسال ــ صحيح الجامع (٢١٧٧).
(٢) رواه أحمد والترمذى وابن ماجة عن أنس ــ صحيح الجامع (٤٥١٥).

• نعيم الأبرار وجحيم الفجار •

يقول الإمام ابن القيم ــ رحمه الله ــ :

ولا تظن أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤)، مختص بيوم المعاد فقط، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة. وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب تعالى ومحبته والعمل على موافقته[1].

وقال الإمام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : إن فى الدنيا جنة مَن لم يدخلها فلن يدخل جنة الآخرة: إنها جنة الإيمان بالله تعالى.

وقال إبراهيم بن أدهم ــ رحمه الله ــ : والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف.

هكذا يا أختاه : إن النعيم الحقيقى فى البعد عن المعاصى والسيئات، وفى القرب من رب الأرض والسماوات.

ولذلك فأنا أريدك أن تعيشى نعيم الأبرار، وأن تدخلى جنة الدنيا وبستان الأخيار الذين جعل الله حياتهم جنة فى الدنيا وجنة فى البرزخ وجنة فى الآخرة.

---

(١) الداء والدواء للإمام ابن القيم (ص: ١٥٤) ط. مكتبة أبو بكر.

• ما أجملها من كلمات •

قال سعيد بن المسيب: أُنزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ (الإسراء: ٢٥) في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

وقال الفضيل: قال الله تعالى: بشِّر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلت منهم، وحذِّر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذبتهم.

وقال طلق بن حبيب: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العبد، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وقال بعضهم: إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة فيقول إبليس: ليتني لم أوقعه في الذنب.

ويروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمَّ به هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان؛ فقال له: إن للجنة ثمانية أبواب كلها تُفتح وتغلق إلا باب التوبة، فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يُغلق فاعمل ولا تيأس.

وقال عبد الله بن سلام: لا أحدّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين.

قال عمر ﷺ : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرقّ أفئدة.

ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عَبدَ الله تعالى عشرين

سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر فى المرآة فرأى الشيب فى لحيته فساءه ذلك فقال: إلهى أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلنى؟ فسمع قائلاً يقول: (ولا يرى شخصاً) أحببتنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك[1].

• يا لها من توبة !!! •

وإننى أهدى إليك أيتها التقية النقية تلك التوبة التى تجعل القلب يخشع، بل ويبكى الدماء بدل الدموع على رؤية أنوار التوحيد والإخلاص من سلفنا الصالح فى نفس الوقت الذى نرى فيه ظلمات المعصية والإصرار عليها من أنفسنا.

﴿فإنا لله وإنا إليه راجعون﴾ على قلوبنا التى قست فأصبحت كالحجارة بل أشد قسوة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٧٤). إنها توبة ماعز والغامدية رضي الله عنهما.

فعن سليمان عن بريدة عن أبيه قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله طهرنى. فقال: «ويحك! ارجع

---

(١) الإحياء للإمام الغزالى: (٤/ ٢٠ ـ ٢١) بتصرف.

فاستغفر الله وتب إليه». قال: فرجع غير بعيد. ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرنى. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك ارجع فاستغفر الله وتُب إليه». قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله طهرنى. فقال النبى ﷺ مثل ذلك.

حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «فيمَ أطهرك؟». فقال: من الزنا. فسأل رسول الله ﷺ: «أبه جنون؟» فَأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «أشرب خمراً»، فقام رجلَ فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «أزنيت؟» فقال: نعم. فأمر به فرجم. فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول: لقد هلك. لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز: أنه جاء إلى النبى ﷺ فوضع يده فى يده ثم قال: اقتلنى بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس، فقال: «استغفروا لماعز بن مالك». قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمة لوسعتهم».

قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد قالت: يا رسول الله! طهرنى. فقال: «ويحك ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه». فقالت: أراك تريد أن تردنى كما رددت ماعز بن مالك. قال: «وما ذَاكَ؟» قالت: إنها حُبْلى من الزنا. فقال: «آنتِ؟» قالت: نعم. فقال لها:

«حتى تضعى ما فى بطنك».

قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال: فأتى النبى ﷺ فقال: قد وضعت الغامدية. فقال: «إذاً لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه». فقال رجل من الأنصار: إلىّ رضاعه يا نبى الله! قال: فرجمها(١).

وفى رواية: «... فلما ولدت أتته بالصبى فى خرقة. قالت: هذا قد ولدته. قال: «اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه». فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرةُ خبز. فقالت: هذا يا نبى الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفعَ الصبى إلى رجلٍ من المسلمين. ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناسِ فرجَموها، فيقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فَتَنضَّح الدَّمُ على وجه خالد، فسبَّها، فسمع نبى الله ﷺ سبَهُ إياها. فقال: «مهلاً يا خالد، فوالَّذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ لغُفر له» ثم أمر بها فَصلى عليها ودفنت(٢).

أيتها الأخت الطاهرة: لا تيأسى من رحمة الله واعلمى أنك غير معصومة من الخطأ والذنوب، بل واعلمى بأن العصمة قد دُفنت يوم أن دُفن رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه مسلم (١١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٨) الحدود.

(٢) رواه مسلم (١١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) الحدود.

وها هو المثال أمامك.. امرأة تزنى ويحركها قانون الإيمان لتعترف على نفسها فتفوز بشهادة النبى ﷺ لها بصدق توبتها. أما قانون البشر فمن السهل اليسير أن نتحايل عليه؛ لأنه ليس من عند الله.

فاجعلى إيمانك حادياً لك على التوبة والعودة إلى ربك الذى هو أرحم بك من رحمة الأم بطفلها الرضيع.

• الكون كله يتحرك لتوبتك !!! •

إن الكون يشعر بطاعتك أيتها الأخت الفاضلة، وهو فى الوقت ذاته يشعر بمعصيتك، وذلك لأن الكون كله قد انقاد وأسلم، بل واستسلم للحى الذى لا يموت.

لقد قال تعالى للسماوات والأرض: ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (النور: ٤١).

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ

مَنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (الحج: ١٨)

ولذلك فأنت حين تتوبين إلى الله فالكون كله يفرح بتوبتك تبعاً لفرح الله.. (وقد يتحرك الكون) فالملائكة تدعو لك بالمغفرة والثبات والشياطين تحزن لتوبتك والكواكب والنجوم والبحار والأشجار تتمايل طرباً برحمة الله ومغفرته لك. ولا عجب فى ذلك فقد كانت الجبال والطيور تردد التسبيح مع نبى الله داود ـ عليه السلام ـ ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٩).

بل لقد أخبر النبى ﷺ عن رجلٍ من الأمم السابقة تحركت الأرض بكل ما عليها من أشجار وأنهارٍ وجبال من أجل توبته لله ـ جل وعلا ـ.

فعن أبى سعيد الخدرى أن نبى الله ﷺ قال: «كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعينَ نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعةً وتسعينَ نفساً، فهل له من توبة، فقال: لا. فقتله فكمَّل به مائةً ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجُلٍ عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومَن يحولُ بينه وبين التوبة؟! انطَلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أُناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى

أرضك فإنها أرضُ سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاهُ الموتُ، فاختصمت فيه ملائكةٌ الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكةُ الرحمة: جاء تائباً مُقبلاً بقلبه إلى الله. وقالت ملائكةُ العذاب: إنه لم يعمل خيراً قطٌّ، فأتاهم ملكٌ في صورة آدميٍّ فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى، فهو له... فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكةُ الرحمة. قال قتادة: فقال الحسنُ: ذُكرَ لنا أنه لما أتاه الموتُ نأى بصدره. وفي رواية: «فأوحى الله إلى هذه: أن تقربي، وأوحى إلى هذه: أن تباعدي. وقال: قيسوا ما بينهما فوجداه إلى هذه أقرب بشبر فغُفر له»(١).

(فسبحان الله) يُسخِّر الله عز وجل الأرض كلها بجبالها وأنهارها وكل ما عليها لكي تتحرك من أجل تائبٍ واحد فكيف لو تاب المسلمون جميعاً؟!!!

• الله يفرح بتوبتك •

يا لها من كلمات تجعل شمس التوبة تضيء القلب وتنير الصدر بنور الحق الذي جاء به النبي ﷺ من عند الحق ــ جل جلاله ــ.

قال ﷺ: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد ــ كتاب التوبة ــ باب قبول التوبة ممن قتل مائة نفس.

كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال ـــ من شدة الفرح ـــ اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح»[1].

وقال الله جل وعلا: «يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي. يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقُراب الأرض خطايا ـــ أى بقرب ما يملأ الأرض من الخطايا ـــ ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»[2].

ويروى عن الحسن قال: لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام، فقالا: يا آدم قرّت عينك بتوبة الله عليك، فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإنّ كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى؟ فأوحى الله إليه: يا آدم، ورّثت ذويك التعب والنَصَب وورّثتهم التوبة، فمن دعانى منهم لبيته كما لبيتك، ومن سألنى المغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب مجيب، يا آدم، وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين

(١) متفق عليه عن ابن مسعود ـــ صحيح الجامع (٥٠٣٣) وأخرجه مسلم عن أنس ـــ صحيح الجامع (٥٠٣٠) ومتفق عليه عن أنس باختصار ـــ صحيح الجامع (٥٠٣١).

(٢) رواه الترمذى والضياء عن أنس ـــ صحيح الجامع (٤٣٣٨).

ودعاؤهم مستجاب.

• علامات صحة التوبة •

وها هى أيتها الأخت الطاهرة بعض علامات صحة التوبة للعبد المؤمن: من علامات صحة التوبة أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها.

• ومنها ألا يزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل: ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)، فهناك يزول خوفه.

• ومنها انخلاع قلبه، وتقطعه ندماً وخوفاً.

• ومنها كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيءٌ، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة، ولا حب مجرد، إنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة عامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحاً ذليلاً خاشعاً، كحال عبد آبق من سيده، فأُخذ فأُحصر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بُداً، ولا عنه غناء ولا منه مهرباً، وعلم أنّ حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جنايته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع في هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد وما أجدي عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيءٌ أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال: أسألك بعزك وذُلى إلا رحمتنى. أسألك بقوتك وضعفى، وبغناك عنى وفقرى إليك.

هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواى كثير، وليس لى سيد سواك. لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه. وذَلّ لك قلبه:

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فيما أُؤمّلُهُ
وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَاذِرُهُ
لا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْماً أَنتَ كَاسِرُهُ
وَلاَ يَهِيضُونَ عَظْماً أَنتَ جَابِرُهُ

• فوائد التوبة •

إن فوائد التوبة يا أختاه لا نستطيع أن نكتبها أو أن نحيط بها، لكن حسبنا أن نستشعر أن التوبة:

١ - سبب لمحبة الله - جل وعلا - :

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

(البقرة: ٢٢٢)

٢ - سبب للخروج من دائرة الظالمين :

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

(الحجرات: ١١)

٣ - طاعة لأمر الله :

فقد قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١)

٤ - سبب لمحو الذنوب :

قال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[١].

٥ - سبب للفلاح في الدنيا والآخرة :

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (القصص: ٦٧).

وقال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (مريم: ٦٠).

---

(١) رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ــ صحيح الجامع (٣٠٠٨).

٦ ـ تبدل السيئات إلى حسنات :

قال تعالى: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ (الفرقان: ٧٠)

٧ ـ سبب في سعة الرزق والقوة :

قال تعالى على لسان نبيه نوح ــ عليه السلام ــ: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً ﴾ (نوح: ١٠ ــ ١٢).

٨ ـ تجعل العبد يهرب من العذاب والوحشة إلى الأنس والرحمة:

قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الذاريات: ٥٠)

٩ ـ سبب في الحياة الهادئة المطمئنة :

قال تعالى: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (هود: ٣).

١٠ - تطهر قلب التائب :

قال ﷺ: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه وهو الران الذى ذكر الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤)».(١)

• الأمور التى تعين على التوبة •

إن الأمور التى تُعين على التوبة كثيرة منها:

١ ـ إخلاص النية لله تعالى فى التوبة وجميع الأعمال الأخرى... قال ﷺ: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً، وابتغى به وجهه»(٢).

وقال ﷺ: «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه»(٣).

٢ ـ أن يحاول التائب قدر ما يستطيع أن يعمل أعمالاً صالحة تثبته على طريق الخير وترجح ميزان حسناته وتذهب سيئاته... قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤)، ووصى النبى ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن فقال: «يا

---

(١) رواه أحمد والترمذى وغيرهما عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٧٠).
(٢) رواه النسائى عن أبى أمامة ـ صحيح الجامع (١٨٥٦).
(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح.

معاذ: اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[١]

وقال ابن تيمية رحمه الله: «.. فالكيس هو الذى لا يزال يأتى من الحسنات بما يمحو السيئات...»[٢].

٣ ــ أن يستشعر قُبح وفداحة الذنب أو الذنوب التى ارتكبها وضررها عليه فى الدنيا والآخرة.

٤ ــ أن يبتعد عن المكان الذى يمارس فيه المعصية، بحيث لا يعود لارتياد المكان الذى فيه المعصية.

٥ ــ إتلاف الأدوات التى كان يعمل بها المعصية كأن يرمى ويكسر المسكر المتبقى عنده أو آلات اللهو.

٦ ــ أن يجد لنفسه رفقة صالحة تعينه على الخير من الصالحين، وأن لا يجالس رفقاء السوء الذين كان يعمل المعاصى معهم.

٧ ــ أن يداوم على قراءة الآيات المخوفة للمذنبين فى القرآن الكريم والسنة المطهرة.

٨ ــ أن يتذكر أن العقوبة المعجلة قد تأتيه فى أى وقت... قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن معاذ ــ صحيح الجامع (٩٧).
(٢) الوصية الجامعة (ص: ٣).

العَذابُ ثُمَّ لا تُنصرُونَ﴾ (الزمر: ٥٤).

٩ ـ أن يداوم على ذكر الله سبحانه وتعالى فى جميع الأوقات... فذكر الله من أعظم الأسباب المعينة على طرد الشيطان... ويحاول المحافظة على الأذكار، خاصة التى تقال فى الصباح والمساء وعند النوم وغيرها الثابتة عن الرسول ﷺ.

• إنما الأعمال بخواتيمها •

قال ﷺ: «إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يُختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة»(١).

وفى رواية: «إن الرجل ليعمل عمل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»(٢).

زاد البخارى: «وإنما الأعمال بخواتيمها».

وإليك أيتها الأخت الفاضلة تلك القصة الرقيقة المؤثرة:

لمح أحد الشيوخ شابين فى العشرين من عمرهما أو تزيد قليلاً فى المطار، مسافرين إلى بلد من البلاد التى يسافر إليها الشباب

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة ـ صحيح الجامع (١٦٢٣).

(٢) متفق عليه عن سهل بن سعد ـ صحيح الجامع (١٦٢٤).

للمتعة المحرمة.

استوقف الشيخ الشابين بعد أن ألقى عليهما التحية، ووجه إليهما نصيحة مؤثرة وموعظة بليغة، وكان مما قاله لهما: «ما ظنكما لو حدث خلل فى الطائرة ولقيتما ـ لا قدر الله ـ حتفكما وأنتما على هذه النية قد عزمتما على مبارزة الجبار ـ جل جلاله ـ فبأى وجه ستقابلان ربكما يوم القيامة؟ وذرفت عينا هذين الشابين، ورق قلبهما لموعظة الشيخ، وقاما فوراً بتمزيق تذاكر السفر، وقالا: يا شيخ، لقد كذبنا على أهلينا، وقلنا لهم: إننا ذاهبان إلى مكة أو جدة، فكيف الخلاص؟ وماذا نقول لهم؟ وكان مع الشيخ أحد طلابه: فقال: اذهبا مع أخيكما هذا وسوف يتولى إصلاح شأنكما.

ومضى الشابان مع صاحبهما، وقد عزما على أن يبيتا عنده أسبوعاً كاملاً، ومن ثم يعودا إلى أهلهما.

وفى تلك الليلة وفى بيت ذلك الشاب ـ تلميذ الشيخ ـ ألقى أحد الدعاة كلمةً مؤثرة زادت من حماسهما، وبعدها عزم الشابان على الذهاب إلى مكة لأداء العمرة، وهكذا أرادا شيئاً وأراد الله شيئاً آخر، فكان ما أراده الله عز وجل.

وفى الصباح، وبعد أن أدى الجميع صلاة الفجر، انطلق الثلاثة صوب مكة ـ شرّفها الله ـ بعد أن أحرموا.

وفى الطريق... كانت النهاية... وفى الطريق كانت الخاتمة... وفى الطريق كان الانتقال إلى البرزخ.

فقد وقع لهم حادث مروع ذهبوا جميعاً ضحيته، فاختلطت دماؤهم الزكية بحطام الزجاج المتناثر، ولفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت الحطام، وهم يرددون تلك الكلمات الخالدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...».

كم كان بين موتهما وبين تمزيق تذاكر سفرهما لتلك البلاد المشبوهة؟! إنها أيام، بل ساعات معدودة، ولكن الله أراد لهما الهداية والنجاة، ولله الحكمة البالغة سبحانه[1].

• لا تحقرنّ صغيرة •

اعلمي أيتها الأخت الكريمة أننا يجب علينا أن نحذر من صغائر الذنوب، فضلاً عن كبائرها؛ فإن الصغائر تكبر بأسباب كثيرة.

• من بينها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار.

• ومنها: أن يستصغر الذنب.. فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى.

وقد جاء في الخبر «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره».

وقال بعض الصحابة ﷺ للتابعين: إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدقّ من الشعر كنا نعدّها على عهد رسول الله ﷺ من

(١) باختصار من (العائدون إلى الله) (ص: ١٣٩ ــ ١٤٠).

الموبقات.

● ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد التمكن من ذلك نعمة.

● ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه، ولا يدرى أنه إنما يُمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (المجادلة: ٨).

● ومنها: أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره؛ فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر».

قال ﷺ: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله تعالى، فيقول: عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه»[1].

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ــ صحيح الجامع (٤٥١٢).

وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر؟ فالإظهار كفران لهذه النعمة.

وقال بعضهم: لا تذنب فإن كان ولابد فلا ترغّب غيرك فيه، فتذنب ذنبين، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة: ٦٧).

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه.

● ومنها: أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به... فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه.. فقد قال ﷺ: «.. من سنّ فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء»[١].

وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها فى الآفاق. وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها.

وفى الإسرائيليات: أن عالماً يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهراً، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار[٢].

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذى عن جرير ـ صحيح الجامع (٦٣٠٥).
(٢) الإحياء للإمام الغزالى (٤/ ٤٥ : ٤٧) بتصرف.

• كيف نعالج عقدة الإصرار على الذنب •

وإليك أيتها الأخت التائبة هذا العلاج الناجع لعقدة الإصرار على الذنب.

أولاً ــ أن تتذكرى كل ما جاء فى القرآن الكريم من الآيات المخوفة للمذنبين والعصاة، وبذلك تتولد خشية الله فى القلب والخوف من عقابه فى آن واحد.

قال بعض السلف: إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشمال (وهو أمير عليه) أن يرفع القلم عنه ست ساعات، فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليها، وإن لم يستغفر كتبها. وقال بعض السلف: ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً؛ فيقول الله تعالى للأرض والسماء: كُفّا عن عبدى وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه، ولو خلقتماه لرحمتماه، ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات، فذلك معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٤١).

قال مجاهد: «القلب مثل الكف المفتوحة كلما أذنب العبد ذنباً انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب، فذلك هو الطبع».

ثانياً ـــ حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، فذلك شديد الوقع ظاهر النفع فى قلوب الخلق، مثل أحوال آدم ﷺ فى عصيانه وما لقيه من الإخراج من الجنة.

وفى قصص موسى عليه السلام أنه قال للخضر عليه السلام: بم أطلعك الله على علم الغيب؟ قال: بتركى المعاصى لأجل الله تعالى. وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديداً، فكأنه أعجبه! قال: فوضعته الريح، فقال: لمَ فعلت هذا ولم آمرك؟ قالت: إنما نطيعك إذا أطعت الله.

وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدرى لمَ فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولكَ لإخوته: ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ (يوسف: ١٣)، لمَ خفت عليه الذئب ولم ترجنى، ولمَ نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظى له؟ وتدرى لم رددته عليك؟ قال: لا، قال: لأنك رجوتنى وقلت: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ (يوسف: ٨٣)، وبما قلت: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا﴾ (يوسف: ٨٧).

وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢). قال الله تعالى: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢).

النوع الثالث ــ أن تعلمى أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع على الذنوب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته... حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تسقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه، قال ﷺ: «إن العبد ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»(١)، وقال ابن مسعود: إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه.

وحكى عن بعض العارفين أنه كان يمشى فى الوحل جامعاً ثيابه محترزاً عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط، فقام وهو يمشى فى وسط الوحل ويبكى ويقول: هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويجانبها حتى يقع فى ذنب وذنبين فعندها يخوض فى الذنوب خوضاً.

النوع الرابع ــ ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد(٢).

• من وصايا الصالحين •

روى أن رجلاً قال لأبى سعيد الخدرى: أوصنى، قال: عليك بتقوى الله عز وجل فإنها رأس كل خير وعليك بالجهاد فإنه رهبانية

---

(١) رواه أحمد فى المسند، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع (١٤٥٢).
(٢) الإحياء للإمام الغزالى (٤/ ٧٢ : ٧٤) بتصرف.

الإسلام، وعليك بالقرآن فإنه نور لك فى أهل الأرض وذكر لك فى أهل السماء، وعليك بالصمت إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان. وقال رجل للحسن: أوصنى، فقال: أعزّ أمر الله يعزك الله. وقال لقمان لابنه: يا بنى زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك، وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً (محتاجاً إلى الناس) وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك، فإن الصلاة أفضل من الصوم، ولا تجالس السفيه ولا تخالط ذا الوجين. وقال أيضاً لابنه: يا بنى لا تضحك من غير عجب ولا تمش فى غير أرب ولا تسأل عما لا يعنيك، ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت، يا بنى إن من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الشر يأثم ومن لا يملك لسانه يندم.

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز رحمهم الله تعالى: أما بعد، فخف مما خوفك الله واحذر مما حذرك الله وخذ مما فى يديك لما بين يديك، فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام. وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى الحسن يسأل أن يعظه فكتب إليه: أما بعد؛ فإن الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولابد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر ومن نظر فى العواقب نجا ومن أطاع هواه ضل،

ومن حلم غنم ومن خاف أمن، ومن أمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك.

وكتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى عدى بن أرطأة: أما بعد؛ فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله، فأما أولياؤه فغمتهم، وأما أعداؤه فغرتهم. وكتب أيضاً إلى بعض عماله. أما بعد؛ فقد أمكنتك القدرة من ظلم العباد، فإذا هممت بظلم أحد فاذكر قدرة الله عليك، واعلم أنك لا تأتى إلى الناس شيئاً إلا كان زائلاً عنهم باقياً عليك، واعلم أن الله عز وجل آخذ للمظلومين من الظالمين... والسلام.

وقام عمار بن ياسر فقال لعليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بُنى؟ فقال عليّ ﷺ: بُنى على أربع دعائم: على الجفاء والعمى والغفلة والشك، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت العلماء، ومن عمي نسي الذكر، ومن غفل حاد عن الرشد، ومن شك غرّته الأماني فأخذته الحسرة والندامة وبدا له من الله ما لم يكن يحتسب[1].

• ماذا أقول له ؟!!! •

يقول صاحب القصة: كُنا ثلاثة من الأصدقاء، يجمع بيننا

---

(١) الإحياء للإمام الغزالى (٤/ ٧٦، ٧٧، ٨٢) بتصرف.

الطيش والعبث، كلا، بل أربعة، فقد كان الشيطان رابعاً، فكنا نذهب لاصطياد الفتيات الساذجات بالكلام المعسول، ونستدرجهم إلى المزارع البعيدة، وهناك نفاجأ بأننا قد تحولنا إلى ذئاب لا ترحم توسلاتهن، بعد أن ماتت قلوبنا، ومات فينا الإحساس.

هكذا كانت أيامنا ولياليناً في المزارع... في المخيمات والسيارات، وعلى الشاطئ. إلى أن جاء اليوم الذى لا أنساه.

وذهبنا كالمعتاد للمزرعة، كان كل شيء جاهزاً، الفريسة لكل واحد منّا... الشراب الملعون... شيءٌ واحد نسيناه هو الطعام، وبعد قليلٍ ذهب أحدنا لشراء طعام العشاء بسيارته. كانت الساعة السادسة تقريباً عندما انطلق... ومرت الساعات دون أن يعود، وفى العاشرة شعرت بالقلق، فانطلقت بسيارتى أبحث عنه، وفى الطريق شاهدت بعض ألسنة النار تندلع على جانبى الطريق.

وعندما وصلت فوجئت بأنها سيارة صديقى، والنار تلتهمها، وهى مقلوبة على أحد جانبيها.. أسرعت كالمجنون أحاول إخراجه من السيارة المشتعلة، وذهبت عندما وجدت نصف جسده قد تفحم تماماً، ولكن كان ما يزال على قيد الحياة، فنقلته إلى الأرض، وبعد دقيقة فتح عينيه وأخذ يهذى: النار.. النار، فقررت أن أحمله بسيارتى، وأسرع به إلى المستشفى، ولكنه قال بصوت باك: لا فائدة لن أصل، فخنقتنى الدموع، وأنا أرى صديقى يموتُ أمامى... وفوجئت به يصرخ: ماذا أقول له؟ نظرت إليه بدهشة وسألته: من

هو؟ قال بصوت كأنه قادم من بئر عميق: الله.

أحسست بالرعب يجتاح جسدى ومشاعرى، وفجأة أطلق صديقى صرخة مدوية، ولفظ آخر أنفاسه.

ومضت الأيام.. لكن صورة صديقى الراحل.. وهو يصرخ والنار تلتهمه.. ماذا أقول له؟.. ماذا أقول له؟

ووجدت نفسى أتساءل: وأنا.. ماذا أقول له؟

فاضت عيناى واعترتنى رعشة غريبة... وفى نفس الوقت سمعت المؤذن ينادى لصلاة الفجر: الله أكبر، فأحسست أنه نداء خاص بى، يدعونى لأسدل الستار على فترة مظلمة من حياتى.. يدعونى إلى طريق النور والهداية، فاغتسلت وتوضأت، وطهرت جسدى من الرذيلة التى غرقت فيها لسنوات، وأديت الصلاة، ومن يومها لم تفتنى فريضة[١].

أختاه : إنه سؤال يجب أن تواجهى به نفسك فى كل لحظة من حياتك «ماذا أقول له؟» ماذا أقول لله عندما أقف بين يديه فيسألنى ما الذى جعلك تتركين القرآن، وتستمعين إلى مزامير الشيطان؟ ما الذى جعلك تخوضين فى أعراض المسلمات؟ ما الذى جعلك تتركين الحجاب؟... إنه السؤال الذى يجب ألا ننساه أبداً، فإن لقاء الله حقٌ وقريب ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ (المعارج ٦، ٧).

(١) «للشباب فقط» لعادل بن محمد العيد.

﴿ ووُضع الْكتابُ فترى الْمُجْرمين مُشْفقين ممَّا فيه ويقُولُون يا ويْلتنا ما لهذا الْكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحْصاها ووجدُوا ما عملُوا حاضراً ولا يظْلمُ ربُّك أحداً ﴾ (الكهف: ٤٩).

• توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله عز وجل •

قال تعالى: ﴿ واللَّهُ يُريدُ أن يتُوب عليْكُمْ ويُريدُ الَّذين يتَّبعُون الشَّهوات أن تميلُوا ميْلاً عظيماً ﴾ (النساء: ٢٧).

وقال ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيئو النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئو الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»[١].

وقال تعالى: «يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفرونى أغفر لكم»[٢].

وقال تعالى: «يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى، وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرت فى ملأ خير منهم، وإن دنوت منى شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت منّى ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتنى تمشى أتيت إليك أهرول»[٣].

فيا لها من رحمة من الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل

(١) رواه مسلم (١٧/ ٧٦) التوبة ـ صحيح الجامع (١٨٧١).
(٢) رواه مسلم عن أبى ذر ـ صحيح الجامع (٤٣٤٥).
(٣) رواه أحمد عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٣٣٧).

شيء... فتوبة العبد إلى الله عز وجل محفوفة بتوبتين من الله عز وجل: توبة قبلها، وتوبة بعدها. الأولى: إذن وتوفيق، والثانية: قبولٌ وإثابةٌ. قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨)، فأخبر الله عز وجل أن توبته عليهم سبقت توبتهم. وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم، وهذا القدر من سر اسميه «الأول والآخر» فهو المُعدّ والمُمدّ، ومنه السبب والمسبَب، والعبد توّابٌ والرب تواب، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الرب نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإثابة.

والتوبة لها مبدأ ومنتهى، فمبدؤها الرجوع إلى الله عز وجل، بسلوك صراطه المستقيم الذى أمر بسلوكه بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، ونهايتها الرجوع إليه فى الميعاد، وسلوك صراطه الذى نَصَبَه موصلاً إلى جنته، فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة، رجع إليه فى المعاد بالثواب، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ (الفرقان: ٧١).

* * *

• التوبة النصوح •

إننا يا أختاه فى أشد الحاجة لأن نتوب توبة صادقة تخرج من أعماق القلب فتصبح نوراً ينير لنا على الدرب.

إنها التوبة التى نرى من خلالها طريق الجنة.

ولقد أمر الله ــ عز وجل ــ عباده بالتوبة النصوح، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨).

والنصح فى التوبة: هو تخليصها من كل غشٍ، ونقصٍ، وفسادٍ.

قال الحسن البصرى: هى أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على ألا يعود فيه.

وقال الكلبى: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن.

وقال سعيد بن المسيب: ﴿توبةً نصوحاً﴾ تنصحون بها أنفسكم.

وقال ابن القيم: النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول ــ تعميم جميع الذنوب واستغراقها، بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

الثانى ــ إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث ــ تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه.

• الله يدعو الكون كله للتوبة •

إن الله ــ عز وجل ــ دعا الناس جميعاً إلى التوبة الصادقة. فلقد دعا المشركين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١).

ودعا إليها أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١). والذين قالوا ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (المائدة: ٦٤)، فقال عز وجل: ﴿أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٧٤). ودعا المنافقين إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١٤٦).

ودعا إليها المسرفين على أنفسهم بالمعاصى من أمة الحبيب ﷺ. فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر: ٥٣)، كما دعا إليها المؤمنين الصادقين. فأمر الله عز وجل أصحاب النبى ﷺ بالتوبة بعد إيمانهم وهجرتهم وجهادهم وصبرهم، فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣١).

بل فتح الله باب التوبة لأصحاب الكبائر ليتوبوا، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣).

وعلى الرغم من تلك الجرائم والكبائر إلا أن الله جل وعلا فتح لهم باب التوبة، فقال: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٤).

وها هم أصحاب الأخدود الذين حرّقوا المؤمنين والمؤمنات، وظلموهم بلا ذنب اقترفوه سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد... هؤلاء الذين فرقوا بين الأم وولدها، وقذفوا ولدها أمام عينيها فى النار، وجلسوا يتلذذون بمشاهدة المؤمنين، وهم يموتون فى النيران، وعلى الرغم من ذلك يفتح الله لهم باب التوبة ليتوبوا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (البروج: ١٠)، فقوله تعالى ثم لم يتوبوا يفيد أنهم لو تابوا لتاب الله عليهم.

وها هم أهل الشرك والقتل والزنا يفتح الله أمامهم باب التوبة، فيقول: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾، ثم بعد ذلك يفتح الله لهم باب التوبة، ويقول: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ (الفرقان: ٦٨: ٧١).

وهؤلاء الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات يفتح الله أمامهم باب التوبة لكى يتوبوا ويقيموا الصلاة ويتركوا الشهوات

ويقبلوا على فعل الطاعات، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٥٩: ٦٠).

ومع كل هذه الأمثلة التى تُثلج الصدور لسعة رحمة الله جل وعلا، إلا أننا لا ينبغى أن نتهاون بعواقب الذنوب والمعاصى، فإن الله كما وصف نفسه بأنه غفور رحيم، فقد وصف نفسه بأنه شديد العقاب، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائد: ٩٨).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ. . .﴾ (غافر: ٣).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩، ٥٠).

فقد يستصغر الإنسان ذنباً وهو عند الله عظيم، قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٥).

* خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التُقى

* واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

* لا تحقرن صغيرة.. إن الجبال من الحصى

فلقد دخلت امرأة النار فى هرة.

قال ﷺ: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»(١).

• أختاه.. احذرى من الأعداء •

إن من أعظم الأعداء التى تقف فى طريقك إلى الله هى تلك الأعداء الأربعة: النفس والدنيا والهوى والشيطان.

● فمحاربة الشيطان تكون بالاستعانة بالله ــ جل وعلا ــ: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الأعراف: ٢٠٠)

● ومحاربة الهوى تكون بتحكيم الأمر المطلق لله تعالى.

● ومحاربة النفس تكون بقوة الإخلاص والتجرد لله.

● ومحاربة الدنيا تكون بالزهد فيها واستحضار نعيم الجنة.

• وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور •

أيتها الأخت الفاضلة:

إن الخالق ــ جل جلاله ــ خلق الدنيا ووصفها لعباده لكى

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ــ صحيح الجامع (٣٣٧٤) ــ الصحيحة (٢٨).

يحذروها، فقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد: ٢٠)، وعلى الرغم من ذلك تكالب الكثيرون من الناس عليها فسلط الله عليهم حُب الدنيا وحجبها عنهم، فخسروا الدنيا والآخرة (إلا من رحم الله).

ولذلك أقول لك أيتها الأخت المؤمنة: اجعلى الهموم هماً واحداً ألا وهو همّ الآخرة.

فقد قال ﷺ: «من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهى راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[1].

بل لقد وضح الحبيب ﷺ قدر الدنيا وقدر احتياجنا إليها فقال: «من أصبح منكم آمناً فى سربه مُعافىً فى جسده عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[2].

(١) رواه الترمذى عن أنس، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٦٥١٠).
(٢) رواه الترمذى وابن ماجة عن عبد الله بن محصن صحيح الجامع (٦٠٤٢)

وقال ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه»[1].

فإذا مالت نفسك إلى حُب الدنيا وشهواتها وملذاتها، فارفعي أعلام الآخرة وتذكرى الجنة والنار.

فإذا اشتهت نفسك الطعام ذكّريها قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الواقعة: ١٧: ٢١).

وإذا اشتهت نفسك الكساء ذكّريها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا (٢٠) عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ (الإنسان: ٢٠: ٢٢)

• وقفة قبل الندم •

أختاه : تذكرى يوم أن دعانا الله إلى التوبة فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

---

(١) رواه مسلم وأحمد والترمذى عن ابن عمرو ــ صحيح الجامع (٤٣٦٨).

(١٣٣) الَّذين يُنفقُون في السَّرَّاء والضَّرَّاء والْكَاظمين الْغَيْظ والْعافين عَن النَّاس واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنين (١٣٤) والَّذين إذَا فَعَلُوا فَاحشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهمْ وَمَن يَغْفرُ الذُّنُوب إلاَّ اللَّهُ ولَمْ يُصرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئكَ جَزاؤُهُم مَّغْفرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي من تَحْتهَا الأَنْهَارُ خَالدينَ فيهَا ونعْمَ أَجْرُ الْعَاملينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣ : ١٣٦)

بل تذكرى يوم أن طمأن قلوبنا بقرب رحمته ومغفرته حتى لا نقنط فقال: ﴿ قُلْ يَا عبَاديَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسهمْ لا تَقْنَطُوا من رَّحْمَة اللَّه إنَّ اللَّهَ يَغْفرُ الذُّنُوبَ جَميعًا إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ ﴾

(الزمر: ٥٣)

ثم تذكرى مرة أخرى يوم أن ابتعد الكثير من المسلمين والمسلمات عن طاعة الله وعن التوبة، فقال تعالى مصوراً حال أهل الغفلة الذين صرفهم الله عن آياته وصرف آياته عنهم، فقال عن حالهم فى الدنيا: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتيَ الَّذينَ يَتَكَبَّرُونَ في الأَرْض بغَيْر الْحَقِّ وَإن يَرَوْا كُلَّ آيَة لاَّ يُؤْمنُوا بهَا وَإن يَرَوْا سَبيلَ الرُّشْد لا يَتَّخذُوهُ سَبيلاً وَإن يَرَوْا سَبيلَ الْغَيِّ يَتَّخذُوهُ سَبيلاً ذَلكَ بأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بآيَاتنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافلينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٦)

ثم أنذر الله عباده قبل يوم الحسرة، فقال: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (مريم: ٣٩)

ثم تذكرى حالهم فى الآخرة، فقد قال تعالى عنهم: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (المؤمنون: ٩٩: ١٠٠).

فما أحوجنا والله إلى التوبة قبل الندم والحسرة فى يوم لا ينفع فيه ندم ولا تُجدى فيه حسرة.

فالتوبة التوبة يا أختاه.. التوبة التوبة يا أختاه.

• أختاه.. توبى لتفوزى بالجنة والرضوان •

إنك والله فى أشد الحاجة إلى توبة صادقة، وذلك بأن تنخلعى من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته.. فتسألى الله أن يرزقك تلك التوبة قبل الندم حيث لا ينفع الندم.

ويا لها من جنة تعيشها التائبة فى الدنيا قبل الآخرة.. فالتوبة جنة لا يشعر بنعيمها إلا من تابت وذاقت طعم التوبة والإنابة إلى الله ـ عز وجل ـ.

فهى جنة الدنيا التى تثمر لك جنة الآخرة.

فتوبى من سماع الغناء وتوبى من مشاهدة التلفاز وتوبى من

الغيبة والنميمة، وتوبى من الكذب والرياء والحقد والحسد، وتوبى من التبرج والسفور، وتوبى من موالاة الكافرات، وتوبى من التفريط فى الصلاة وغيرها من العبادات.... واجعلى الجنة والنار نُصب عينيك ولا تأمنى حتى تضعى أقدامك فى تربة الجنة حيث الخلود فى النعيم والرضوان، حيث تعيشين فى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولذلك أسألك يا أختاه هذا السؤال وأقول:

• أختاه... هل تعرفين الجنة ؟!!! •

تالله أيتها الأخت الطاهرة لو تعلمين قدر الجنة لكان ذلك حادياً لك على أن تشمرى للفوز بها.. وحادياً للتوبة من كل ذنب يبعدك عن نعيمها.

قال ابن القيم رحمه الله: وكيف يُقدّرُ قَدْرَ دار خلقها الله بيده، وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها الخير بحذافيره وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة لا من الحطب والخشب، وإن سألت



عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحُلَل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمرٍ لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»(١).

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» مصداق ذلك فى كتاب الله ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧).(٢)

فيا عجباً ممن يؤمن بدار هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلها، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها، ويهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته.

---

(١) رواه البخارى (٦/ ١٣) الجهاد ـــ ومسلم (١٣/ ٢٦) الإمارة.

(٢) رواه البخارى (٦/ ٣١٨) بدء الخلق ـــ ما جاء فى صفة الجنة، ومسلم (١٦/ ١٦٦) الجنة.

كيف وأهلها ملوك آمنون، وفى أنواع السرور متمتعون، لهم فيها ما يشتهون، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر إلى وجه الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان، ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون، وهم من زوالها آمنون.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوّا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ٤٣).[١]

أسأل الله جل وعلا لك أيتها الأخت الطاهرة أن يرزقك توبة صادقة يطهرك بها من كل ذنب، وأن يجمعك وأخواتك فى جنته ومستقر رحمته.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المشفق عليك

محمود المصري

(أبو عمار)

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ١٧٥) صفة الجنة ـ باب فى دوام نعيم أهل الجنة.

محتويات الكتاب